معرض استعادي له قبل اسبوعين من رحيله:

وليد قارصلي استعاد جسده شعراً وموسيقى ورسوما قبل الموت

دمشق ـ «القدس العربي» ـ من أنور بدر:

وليد قارصلي (القدس العربي)

من اعمال الفنان (القدس العربي)

منذ أسبوعين كان المعرض الاستعادي للفنان وليد قارصلي في المركز الثقافي الروسي بدمشق، دون أن ندري نحن أو هو بأنه المعرض الأخير له، وشاغلتني عنه رحلة طارئة الى مدينة الرقة لتغطية فعاليات «مهرجان الشعر العربي» حيث فاجأنا نبأ وفاة قارصلي يوم 18 نيسان (ابريل) الحالي، فعدت في اليوم التالي لأشارك في تشييعه من مشفى الطلياني الى مثواه الأخير، وسؤال يراودني وجموع المشيعين:

ألن يتوقف حصاد المبدعين في سورية، حيث طالت يد المنون أربعة من خيرتهم في أربعين يوماً، بدأت القافلة مع رحيل عبد المعين ملوحي واستمرت برحيل محمد الماغوط وعبد السلام العجيلي ثم وليد قارصلي، فهل يكون النهاية أم أن المنية مازالت تبحث عن ضحايا جدد بين مثقفي ومبدعي سورية؟!

وان كان الرحيل صعباً، رغم اليقين بأن الانسان يُشكل مشروع فنائه منذ لحظة ولادته، الا أن رحيل وليد قارصلي كان أصعب، وهو الطفل الذي لون بالموسيقى والشعر واللوحات حياته ومساحة علاقته بالآخر والعالم، رغم اعاقته التي أرقدته فراش المرض لثلاثة عقود ونيف.

ولد قارصلي في مدينة تدمر عام 1944 اذ كان والده موظفاً فيها، وكانت والدته اقبال ناجي قارصلي تتعلم الرسم على جدران منزل غادره أحد الفرنسيين مخلفاً لوحات اضطرت أن تستر عُري بعض نسائها بأثواب حاكتها من خيوط اللون، فيما أضافت لبعضها من خيوط الطبيعة تشكيلات ملأت فيها المساحات الخلفية للوحة.

فيما بعد عادت الأسرة الى دمشق، وأكمل قارصلي تحصيله الثانوي مُنجرفاً مع هوايته للموسيقى تارة وللرسم أخرى، حتى ألف فرقة الـ«بلو ستارز» عام 1961 والتي شارك في تقديم أعمالها حتى عام 1963، حيث غادر الى الاتحاد السوفييتي سابقاً ليدرس في مدينة «لينينغراد ـ بطرس بورغ» الهندسة الالكترونية، وهناك أعاد تأليف فرقة موسيقية مختلطة، استمرت حتى عام 1969 بتقديم أعمال تمزج بين الموسيقى المحلية للمنطقة العربية أو لأمريكا اللاتينية بموسيقى الغرب الحديثة.

ورغم حصوله على ماجستير في الهندسة الالكترونية من أكاديمية «لينينغراد» الا أنه تعرض فيها لنكستين، الأولى أصابته بالشلل شبه التام نتيجة حادث اليم، ألقاه مُسطحاً على فراشه ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً، لا يتحرك من أعضائه الا الرأس والذراع. والثانية كانت وفاة والدته، قبل أن تكمل تعليمه أبجدية الألوان.

لكنه في لينينغراد لم يحصل على شهادة الهندسة فقط، بل طور هوايته في الموسيقى، وطور مواهبه في الرسم، اذ انتقل من مدرسة والدته الى أكاديمية الفنون في جورجيا ما بين 1974 ـ 1975 حيث أتبع دورة في الرسم والحفر فيها، وكان أول معرض له في موسكو عام 1975، والذي ضم 95 عملاً منفذاً بتقنيات مختلفة.

لكنه ما بين عامي 1967 وتاريخ وفاته أقام أكثر من 25 معرضاً شخصياً في كل من «لينينغراد ـ موسكو ـ دمشق ـ بيروت ـ عمان ـ اليابان ـ باريس ـ كندا»، اضافة الى العديد من المشاركات في معارض جماعية محلية وعربية ودولية، وكان معرض المركز الثقافي الروسي بدمشق آخر معارضه الفردية وهو معرض استعادي.

كما سبق له المشاركة في معارض البورترية في صالة الرواق، وعمل أيضاً في مجال رسوم الأطفال والكاريكاتير، وتصميم أغلفة الكتب والملصقات وغرافيك الكومبيوتر، اضافة لأفلام الكرتون. وكانت أطروحة في جامعة موسكو بعنوان «تاريخ الفن المعاصر في سورية 1975 ـ 1980».

ولم يثنه هذا النشاط الكثيف، عن تأليف الموسيقى التصويرية والأغاني لعدد من المسرحيات، كما ألف ألحاناً وأغاني وأفلام الصور المتحركة. كل ذلك وهو مستلقٍ على فراشه لا يحرك الا رأسه ويده، بل كان من فرط نشاطه أنه من أوائل من افتتحوا مواقع حوارية على الانترنيت، مع اهتمام كبير بروح النكتة والانتقاد الساخر وحتى رسوم الكاريكاتير.

وكما لون حياته الخارجية، نجح قارصلي بتلوين حياته الداخلية بالثقة والأمل، واستحضر مدينته دمشق القديمة الى غرفته كما استحضر أصدقاءه الحميمين، فكانت تطغى بيوت دمشق وحاراتها على جل موضوعاته، لكنها حيطان وأزقة تأخذ المنحى التعبيري المستمد من تأثيرات والدته، حيث أعاد صياغة عناصر الواقع دون أن يماثلها، مستخدماً ألواناً هادئة في الغالب تشي بالحزن الذي يكتنف عالمه الداخلي دون أن يفضح هذه الحالة، بل نلاحظ ميلا قويا لأنسنتها، حيث النظرات وملامح الوجوه تكاد تقفز الينا من الشبابيك ومن التكوينات الجدارية، وحتى من بعض الأشجار أو الأغصان التي تتوزع في بعض اللوحات دون أن تحمل أوراقاً، مع أن لوحات قارصلي التي تلتقط بمعظمها تفاصيل دمشق القديمة، قدمت بيوتا وحارات خالية من البشر.

ومن أهم ما يُميز رسومات قارصلي الموسيقى اللونية المتناغمة في هدوء ـ الا بعض اللوحات ـ وهي ذات الموسيقى التي ظهرت في أشعاره، والتي عبرت عن أعماقه الداخلية، أكثر مما عبرت عن حضور العلاقات الخارجية، وفي هذا الصدد نقدم نموذجاً من قصيدة كتبها في بروشور تقديم لأحد معارضه الفنية عام 1986 يقول:

(المجد لك أيتها الآلام)
(المجد لك أيتها الآلام)
من أين أتيت؟ ومم صنعت؟
ومن جعلك تقطرين تباعاً وتوتراً؟
أهو الليل؟
أم جمعتك آلاف السنين؟
الفجر أتى وشعاع الشمس رشف الندى
عن أفق اليوم.. عن حاجز الحنين
واللوحة العذراء تلوح بصفحتها
تدعو من يرفع عنها لون الروعة والطهارة الأبيض..
«المجد لك أيتها الآلام»...
أنقذي روحك وارحلي...
اهربي.. واتبعي الجبناء...
اهربي.. اهربي..
فقد طرقت يدي باب العذراء

وهكذا نلاحظ كيف نجح قارصلي في استعادة جسده الذي هده المرض، استعاده شعرا وموسيقى ولوحات جميلة.

«حي من فلسطين.. قصص تحت الاحتلال» تعرض على مسرح ابوظبي الوطني قريبا

أبوظبي ـ «القدس العربي» ـ من جمال المجايدة:

تنظم لجنة أصدقاء جامعة القدس ولجنة رعاية الأسر الفلسطينية في العاشر من ايار (مايو) القادم عرضا مسرحيا تقدم من خلاله فرقة مسرح وسينماتيك القصبة في رام الله مسرحية «حي من فلسطين.. قصص تحت الاحتلال» وذلك على المسرح الوطني بأبوظبي.

وأوضح منظمو الفعالية التي تقام تحت رعاية الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي أن موعد العرض يصادف الذكرى الـ58 لنكبة وتشريد الشعب الفلسطيني خاصة وأن حبكة المسرحية تدور حول تحول الإنسان الفلسطيني إلى مجرد خبر تتناقله وسائل الإعلام.

وأضاف المنظمون أن تقديم النشاط الثقافي والحياة الفنية القائمة في فلسطين تستحق أن يتم تسليط الضوء عليها وتقديمها للعالم في ظل القمع المتزايد الذي تمارسه القوات الاسرائيلية ضد الفلسطينيين المقيمين في الداخل وما يقابله من تحد وإصرار على الحياة والمضي قدما في مسيرة النهضة رغم كل الظروف.

وأكدوا أن ريع الحفل مخصص لدعم برنامجين تعمل عليهما اللجنتان المنظمتان وهما برنامج «كفالة الطلاب في جامعة القدس» الذي تشرف عليه لجنة أصدقاء جامعة القدس والذي تمكن منذ تأسيسه من دعم أكثر من 400 طالب متفوق يدرسون في جامعة القدس والجامعة العربية الوحيدة في مدينة القدس المحتلة.

أما البرنامج الثاني فهو برنامج «من أسرة لأسرة» الذي تشرف عليه لجنة رعاية الأسر الفلسطينية والتي تعمل على دعم أكثر من 500 أسرة فلسطينية مقيمة في الداخل.

وعرضت «قصص تحت الاحتلال» في عدة دول عربية وغربية من بينها مصر وتونس والسويد وبلجيكا واليابان والولايات المتحدة وبريطانيا وتركيا واسبانيا وحازت على العديد من الجوائز العربية والعالمية.

وبالرغم من مرور أكثر من خمس سنوات على بدء عرضها ومشاركتها في المهرجانات والاحتفاليات الدولية لا تزال هذه المسرحية الفلسطينية تجذب انتباه النقاد والمشاهدين الذين اعتبروها من الأعمال المسرحية التي أثبتت قدرة فائقة على تصوير معاناة الشعب الفلسطيني بسبب الاحتلال وسياساته.

ويعتبر مسرح وسينماتك القصبة مؤسسة ثقافية فلسطينية غير حكومية متخصصة تأسس عام 1970 في القدس وتم في عام 2000 افتتاح المسرح في مدينة رام الله.

ويعمل المسرح على تفعيل الحياة الثقافية في فلسطين من خلال إنتاج أعمال مسرحية واستضافة عروض فنية في مجالات المسرح والموسيقى والرقص بالإضافة إلى عرض الأفلام السينمائية اليومية وتنظيم الأسابيع والمهرجانات السينمائية المتخصصة. ويقوم المسرح بتنظيم برامج ونشاطات ودورات وندوات ثقافية وفنية مختلفة ويستهدف في عمله شرائح المجتمع بشكل عام بالإضافة إلى النساء والشباب والأطفال بشكل خاص.

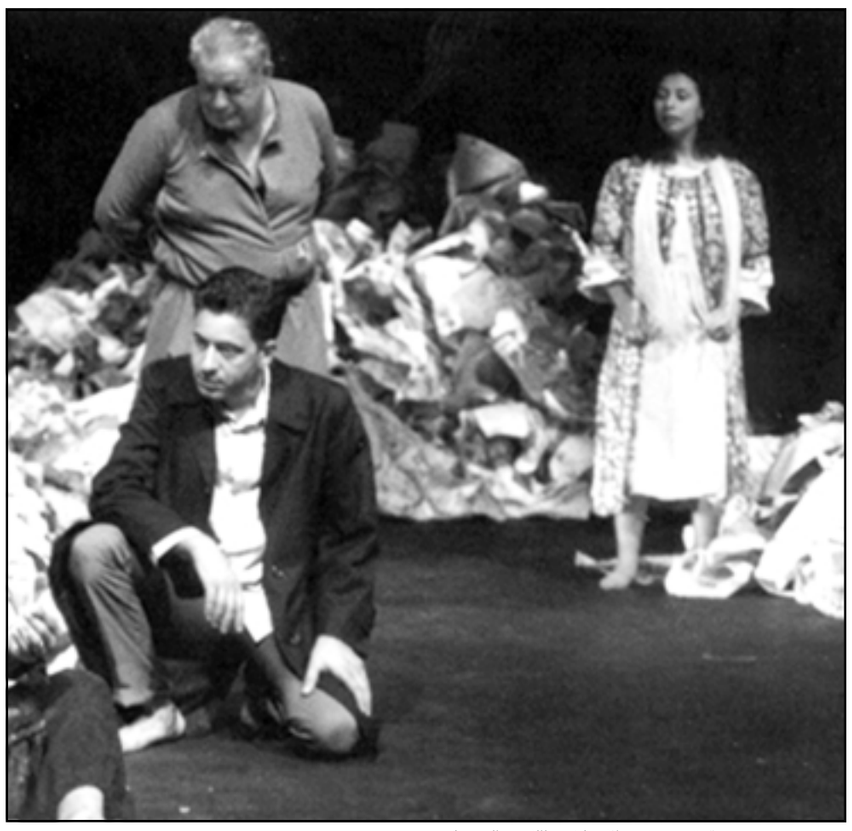

مشهد من مسرحية «قصص تحت الاحتلال» (القدس العربي)

ثلاثة وجوه للهوية

نائل بلعاوي*

«هوية الغريب»

■ في الأمكنة البعيدة عن مرجع الاهل، عن روائح الاطعمة الاولى والحكايات الاليفة. البعيدة عن تلك الاحزان والافراح الصغيرة التي تولد وتموت لاقل الاسباب قيمة ومعنى. في تلك الامكنة البعيدة حين يسمع الغريب صدى الاغاني الشعبية الحزينة التي تناقلها الاباء، ويدندن ايقاعاتها اذا استطاع.

في تلك الامكنة / هذه الامكنة، التي اكتب من احداها اليوم، تصبح الهوية، ان رغبنا او لم نرغب، سؤالا حاضرا وبعنف، نعالجه، او نحاول بالحيل والنسيان وبالصمت والصخب، ونفتش له بين هذا وذاك عن اجوبة ممكنة، عادة ما نستقي منطقها من جوف المونولوج الداخلي وحده، وليس من روح الديالوج مع المكان الجديد والبحار الجديد والثقافة الجديدة. ونعيش.. نتابع درب الحياة الى اخره ونعيش بأوهام الحيلة والنسيان وبسلطة المونولوج، في حين تتسلح الهوية / الذات بأسباب الدفاع المفترض عن نفسها وتسن مخاليها ضد جميع الاشياء التي لا تشبهها او تتناغم معها.. ضد الامكنة التي لا تشبه تلك الاخرى التي غادرناها. ضد البحار الجديد الذي لا نعرف اسمه او شيئا عن احلامه وافكاره وعاداته وروائح مطبخه (هويته) وضد الثقافة الجديدة التي سافرنا اليها حاملين «اعباء الثقافة الاصيلة» على حد تعبير فرويد، فوق اكتافنا، اضافة لاعباء الرفض المسبق للحوار، اصلا، مع الثقافة الجديدة (هوية المكان الجديد)، او التعاطي معها والبحث عما هو مشترك بيننا وبينها، معلنين، اينما حلت الفرصة عن الرغبة برفضها، رفضها النهائي.

حين يشرع الغريب برفض هوية المكان الجديد (رفض الاخر) معليا من شأن هويته المحمولة وحدها يدخل، بذلك، او يدخل نفسه في مصيدة اغتراب وجودي لا ترحم. لا بد ان تقوده مع الوقت الى نفق انفصام مزمن عن المحيط الخاجي، سوف يقود بدوره الى حالة انفصام حقيقي عن الذات، حين ستبرز هناك، او تدفع بقوة الى السطح مخالب الهوية المحمولة، ليصبح طقس العودة الاثير اليها ليس فعلا دائما ومحبباً فحسب، بل مثل السيف، تصبح الهوية في يد الغريب، ليواجه به/ بها الاخر، ذلك المختلف.

تتعمق حالة الانفصام تلك وتتأصل، ثم تتفاقم اكثر فأكثر في ظل عدم ادراكها. غياب الاحساس بوقوعها (لا يحس مريض الشيزوفرينيا بمرضه ابدا) والعيش كأن شيئا لم يحدث. كأن الامتناع عن الاقتراب من الاخر (صاحب البيت) امر عادي تماماً، وكأن التأكيد على تفوق كل ما حمله الغريب معه من ارث، وعادات على ذلك الذي لقيه في الديار الجديدة هو الصواب بعينه. وكأن عملية التسليح المستمرة للهوية/ الذات هي الخيار الوحيد للعيش والاندماج في ربوع الاخرين.

وكأن الجواب عن سؤال الهوية الغامض هذا لا يتم الا بالتقوقع في بطن الهوية ذاتها، بتضخيمها الى الحد الاقصى واعتبارها في نهاية المطاف اداة مقدسة لا مفر من استخدامها في مواجهة الاخر، والدفاع عنها كشيء مقدس ايضا، لتصبح، هوية الغريب تلك سلاحا حادا في يده وقلعة يحتمي خلف اسوارها في آن.

انها الوسيلة والمكان الامن والتعويض الافتراضي عن الهوية الكبيرة المفقودة (العائلة والمجتمع السابقين). وما المحيط الجديد والجيران الجدد واللغة الجديدة والثقافة المجهولة سوى (نقائض طبيعية) لا تشبه الخصائص المحمولة بشيء، ولا يسمح لها بالتصالح معها؟!

لهذا ولاسباب عديدة اخرى تبدو حياة الغريب في المكان الجديد رهينة محاولات متكررة لتأكيد حضور الأنا/ الهوية وتحصينها بالموروث من التقاليد والعقائد. فهي: «مهددة بالتلاشي في محيط الهويات الاخرى» وهي «مستهدفة، لذاتها واغراضها» وهي، كما يتوهم الغريب «الافضل والاجمل، وعليها لذلك ان تبقى وان تسود»، على حساب الاخر وفي عقر بيته (المجال الحيوي لهويته هو) دون ان يلتفت الغريب (بحكم اعراض الانفصام التي يحملها) الى حقيقة ان اناه/ هويته وافدة على المكان الجديد وليست وليدته، وعليها، بالتالي، ان تتفتح والى ابعد مدى ممكن. وان تقبل بجدلية التأثر والتأثير التي تشكل حجر الاساس في العلاقة بين الانا والاخر. فالغريب هو المطالب اولا بمد يد التسامح لصاحب البيت. هو الذي يقف في موضع الاجابة عن الاسئلة الطبيعية التي يطرحها المكان واصحابه: «لماذا اخترت المجيء الى هنا تحديدا» و«ماذا تريد ان تفعل» و«ماذا يعني هذا الزي الذي ترتديه» و«هذا الطعام.. وهذي اللغة والسلوك المختلف»؟ و.. و.. الى اخر (اعذار) الاقامة في البلد الجديد. وعلى الغريب ان يجيب، ان يفتح صدره ويجيب، معلنا بذلك عن حسن نواياه ومقدما في الوقت ذاته لذلك الجانب المرن والتسامح من هويته القادرة (مثل جميع الهويات) على التعايش والتأثر والتأثير.

ولكن.. هل تستطيع هوية الغريب ان تتعايش مع مضيفها؟ هل تحمل فعلا طاقات التأثر والتأثير المنشودة تلك؟ وهل تتمتع أولا واخيرا بجرأة تقديم الجميل مما لديها وإغماد سيوفها؟ ام ان العلاقة بين الضيف والمضيف هي اسيرة ابدية لقوى العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية؟ وما الهويةفي نهاية المطاف سوى الضحية الاولى لتلك القوى والعلاقات؟

قد يتمكن علماء النفس والاجتماع من الاجابة على الاسئلة اعلاه. وقد تجيء اجوبتهم لتؤكد على عمق الاشكالية التي تحكم علاقة الغريب بهوية المكان الجديد. وقد تتمكن من العثور على مخارج لتلك الازمات، وقد لا تتمكن.

ليبقى الغريب، بين هذا وذاك، وفي ظل غياب الاجوبة والحلول وغياب القدرة الذاتية على خلقها اسيرا لامراض الانفصام عن المحيط والذات، اسيرا لمخالب هويته ولجنون الخوف من طغيان هوية الاخر، صاحب المكان، الحامل هو الاخر سيف هويته المسنون في وجه الغريب.

«هوية الآخر»

رب البيت. سيد المكان الجديد وحامل مفاتيحه واسراره وخصائصه قبل ان يحط الغرباء رحالهم بين ربوعه بكثير. انه الاخر مختلف اللون واللسان والتقاليد، والمعتقد احيانا. وهو المطالب بفتح ابواب بيته وقلبه امام جميع الهويات التي يمثلها الغرباء.

وهو المطالب، مرة اخرى، بالتنازل (او هكذا يعتقد) عن جزء من امتيازاته التي يكفلها المكان بما هو حصن القبيلة التي ينتمي اليها، والمحمي في الوقت ذاته بقوة الدولة (الدستور والقانون وقوى الامن). اي ان الاخر هذا يتمتع تلقائيا بمكتسبات طبيعية (الدولة والجغرافيا)، ولا يتمتع بها الغريب، المطالب، هو الاخر، بالكفاح (بعد الحصول على الاقامة القانونية والبيت ومكان العمل) لنيل حصته منها. تبدأ العلاقة، اذن، بين السيد والغريب دون تكافؤ منطقي لادواتها، فبينما يكافح القادم للحصول على موطىء قدم في المكان الجديد، يكافح صاحب المكان المحصن بقوانين الدولة وبقوة الدفاع الطبيعي عن حقوق الملكية الذاتية، لسحب ذلك الموطىء، او زرع الطريق اليه، على الاقل، بالمصاعب والعقبات التي تبدأ، عادة، قبل لحظة وصول الغريب الى المكان الجديد. فالغريب محكوم ابدا بنمطية الصورة المزروع فيها سلفا، فهو قادم «من بلاد بعيدة محكومة بقبضات عسكرية وانظمة شمولية ينخرها الفساد وتدني مستوى المعيشة وندرة فرص العمل» وهو «لا يتمتع بمستوى تعليمي جيد او مؤهلات استثنائية»، وهو «قادم لاقتناص الفرص وبصرف النظر عن الطريقة لذلك». وهو اولا واخيرا: «صاحب هوية غريبة، صارمة الملامح والحضور، ولا تحترم الاخر».

وبعبارة ادق: «غير المتحضر» و«المعتدي» على بلاد الاخرين وعلى امتيازاتهم، وعليه، اذا استطاع، ان يثبت العكس. امام طغيان الصورة النمطية تلك، واستقرارها في المخيلة الشعبية (للنخبة وللعامة على حد سواء)، وبصرف النظر عن درجات اقتراب تلك الصورة من الحقيقة او ابتعادها عنها، تبدأ هوية أهل المكان الجديد بالظهور الحقيقي، بالتعبير عن مكنونها والدفاع العصبي عن خصائصها وحدودها لتأخذ شيئا فشيئا بتقديم ذلك الشطر الخشن وغير المتسامح من وجهها، فهي، كما يتصور اصحابها: «مهددة في عقر دارها» وهي «محتقرة ورخيصة في عيون الغرباء، كما هي في ثقافتهم» وعليها لذلك ان تسن سيوفها وان تبدأ هي اولا بالهجوم.

تتجلى وسائل هجوم هوية صاحب المكان على هوية ضيفه بأشكال وصور عديدة، لعل النقاط التالية هي من ابرزها:

1 ـ دفع الغرباء لاكتراء المساكن الاقل جودة والبعيدة في آن عن مراكز المدن، وعن تجمعات المواطنين الاصليين.

2 ـ تحديد (معلن وغير معلن) فرص الحصول على الوظائف في الحقول الاقل مردودا ماديا، والاكثر مشقة ومهانة. (تلك المهن التي لا يقبل بها ابناء البلد، وفي حقول الندوات تحديدا).

3 ـ ابعاد الغرباء عن فرص المشاركة او الاندماج في حقول الانتاج الثقافي والفني (ثقافة المكان الجديد وفنونه)، اضافة لتعميم سياسة عدم الاكتراث (الاعلامي تحديدا) بما ينتجه الغرباء من ثقافة وفنون.

4 ـ منح الاصوات الانتخابية للاحزاب اليمينية المتطرفة (تلك المعبرة بشكل عنيف عن هوية المكان واهله). وقد ازدادت هذه الظاهرة بصورة ملحوظة، خلال السنوات الاخيرة، في عدد ليس بالقليل من دول الاتحاد الاوروبي.

5 ـ تسليط الضوء اعلاميا (الصحافة الشعبية تحديدا) على الجانب السلبي من سلوك الغرباء وابرازه كوجه وحيد لوجودهم، حتى وان بقي ذلك السلوك (الجرائم بمختلف انواعها) ضمن المعدل الطبيعي العام.

تتم الخطوات المذكورة اعلاه، وتلك الاخرى التي لا يتسع المجال لذكرها الان، عبر شبكة من التعقيدات والصعوبات التي توضع في دروب الغرباء وتجعل حيواتهم في الامكنة الجديدة وكأنها استمرار طبيعي لتلك الحيوات الكئيبة التي خلفوها في الامكنة القديمة المحكومة بقبضات الانظمة الشمولية وبمستويات المعيشة المتدنية، خصوصا وان الدولة (في المكان الجديد) تلعب دورا حاسما في جعل الصعوبات اعلاه ممكنة التحقيق، فبدون القوانين التي تسنها الدولة وترعاها، لن يتمكن رعاياها من التعبير عن قسوة الهوية وتطرفها بهذا الشكل السافر الذي نطالعه احيانا في صيغة الاعلان الصحافي التالي: «وظائف شاغرة للمواطنين الاصليين فقط» او «بيوت للايجار لغير الاجانب». وبدون تلك القوانين، لن تتمكن احزاب اليمين المتطرف من اتباع ومواصلة سياسات بث الرعب في قلوب مواطنيها، دافعة بهم اكثر فأكثر، الى التقوقع العصبي داخل حدود الهوية / الذات، لتصبح النظرة الى الغرباء هناك، ومن هناك، شديدة العداء، اذ لا ترى فيهم سوى «مخلوقات غازية» قادمة من وراء الحدود والبحار لاقتناص الفرص واحتلال البيوت واماكن العمل.

يرجع الاخر الى هويته ويعسكر خلف اسوارها بثبات عقائدي معمقا بذلك الهوة التي تفضله عن جيرانه الغرباء، وفاتحا باب الهبوط الى درك الشعور العنيف بالخوف على مصراعيه. انه بدقيق العبارة مريض بارانويا، لا يرى امن وجوده الا عبر عزلته وابتعاده الى اقصى حدود الممكن عن وجود الاخرين. كما لا يرى، مرة اخرى، مفرا من الشروع في اعداد وترتيب وسائل الهجوم (على مصادر الشر) المذكورة سابقا، مدافعا عبر ذلك (كما يتوهم مريض البارانويا) عن عزلته وشروطه واغراض هويته. بارانويا اذن، تأكل كل يوم شطرا من روح المضيف. والشيزوفرينيا تفعل فعلها في نفوس الغرباء. والهوة تزيد وتتعمق، والحوار المنشود يصبح مستحيلاً في واقع تسوده الامراض وتبعات الامراض وتجليات الامراض وتتحكم بقواعده الهويات/ صراع الهويات، تلك المقدسة!

«الهوية الاخرى»

الى نجوى حشاني.. إقرارا بهويتنا الأخرى

أود الاشارة في البداية الى ان الحديث السابق عن التناقض/ الصدام الموجود فعلا وبأشكال عديدة/ بين هوية الغريب وهوية مضيفه في المنافي، لا يعني ابدا اقتصار الصدام الهوياتي ذاك على حالة المنفى وحدها، فالهويات تتصارع مع بعضها البعض، وتتمركز، كما هو معروف، في خنادقها اينما وجدت او استشعرت مصادر تهديدها المفترضة والتي يمثلها الاخر، حامل الهوية الاخرى وحارسها الامين. لقد اخترت المنفى نموذجا، او مسرحا لصراع الهويات، لسبب بسيط وهو ان حضور الاخر، هناك، يبدو اكثر حدة ووضوحا من حضور (الاخر) داخل المجتمع الواحد والقبيلة الواحدة، فمع الاول (صاحب البيت) تتراجع نقاط الالتقاء والاتفاق والتشابه بالنسبة للغريب الى حدودها الدنيا. بينما تصعد مع الاخر (شقيق الدم واللغة والمعتقد.. الخ) الى حدودها الاعلى، اضافة الى ان الهوية حين تحمل الى مجتمع جديد تشرع على الفور بتحضير اسباب واجراءات الدفاع عن نفسها، حتى وان لم تكن مهددة بشكل فعلي، فقد غادرت، فعلياً، محيطها العائلي والجغرافي (عناصر امنها) واصبحت غريبة ومرغمة على (مواجهة) هويات اخرى مصابة بدورها باعراض وأوهام الدفاع الضروري عن النفس.

في المنفى، مسرح الهويات العملاق ذاك، تصير الهوية سؤالا. ويصير السؤال هاجساً، والهاجس يفتح درب البحث الطويل عن الاجوبة، ولا يقود اليها. فلا اجوبة هناك على اسئلة الهوية، كما لا يوجد هناك ايضا وصفات سحرية جاهزة لتفكيك تعقيداتها، او وضع حد نهائي لاضطرابات بارانويا الدفاع عنها، او شيزوفرينيا الاحساس القوي بها. لان الهوية في واقع الامر ليست جسدا واحدا تمكن منه الامراض ويمكن بالتالي علاجه. ولا هي بالكتلة المتكاملة التي تحتوي على عناصر محددة ومعروفة تسهل من مهمة تحليلها، فهي هلامية بلا جسد او ملامح (وهي العكس ايضا). وهي زئبقية الى الحدود القصوى (وثابتة مثل صخور الجبال ايضا) وهي نوع خاص من البكتيريا النائمة التي يتم تنشيطها، كلما اقتضى الامر، لتنقض على من حولها (الاخر) ثم على حاملها ايضا. لتكون، الهوية، بذلك حاضنة طبيعية للمتناقضات (بكتيريا نائمة ومسالمة تتوحش حين تستفز او تلتقي بنقيضها). كما انها وبحكم تلك المتناقضات تشكل دائما مصدرا وسببا للعنف وتداعياته الكارثية التي عشناها بصورة مأساوية خلال العقد الاخير من القرن الماضي ولا زلنا نعيشها حتى اليوم: (كانت حروب البلقان المتنوعة مثالا ساطعا على آلية تحول الهوية الى مصدر صريح للدمار والقتل المجاني. كما كانت الحرب الاهلية في رواندا والسودان وفي غيرها الكثير، امثلة هي الاخرى عن لحظة شروع البكتيريا في الدفاع عن نفسها ومهاجمة الاخر في آن).

ولكن الهوية في نهاية المطاف تحمل رغما عنها اسباب نفيها، تجاوزها او ربما تلاشيها ايضا. فكلما تعمق الاحساس بثقلها وارتفاع سقف مطالبها، وكلما تعمق الشعور الذاتي بعبوديته لها، تراءت، في تلك اللحظة دروب الخلاص. واشتدت الحاجة للقفز من على اسوار الشيزوفرينيا والبارانويا نحو فضاء ارحب واجمل، لا يكون فيه الآخر آخر عدواني الحضور او الايحاء، وليس نقيضا للأنا/ الهوية بل امتدادا طبيعيا لها، وواحدا من مصادر تنوعها وغناها الاكثر اهمية على الاطلاق، فبدون الآخر ذاك تبقى الهوية/ الذات، رهينة ينابيعها الثقافية والاجتماعية والعقائدية الواحدة، غير المتنوعة، او القادرة على التجديد والاثراء والتأثر والتأثير، تلك الشرايين الاساسية التي تولد من ارحامها مبادىء التسامح والاحترام المتبادل، والقدرة على التعايش، بل متعة التعايش المشترك.

حين تشتد الحاجة لاكتشاف الاخر (انسجاما مع قوانين الجغرافيا المشتركة على الاقل). وتصبح الرغبة بتذوق اطعمته والاستماع الى موسيقاه وحفظ الممكن من اغانيه، امرا بديهيا تماما. عندها فقط تبدأ الهوية بتلوين جلدها بالوان اخرى. تبدأ بتنويع مصادر تكوينها، والاعتماد على ينابيع جديدة ومختلفة لري حقول الذات، وليس الاتكاء الابدي على تلك المصادر الموروثة وحدها، وبصرف النظر عن طبيعتها او الموقف منها، فهي لا تقود في النهاية الا الى انتاج العصبية القبلية/ الهوياتية والتشبث الاعمى بمنطق افضلية الانا على الاخر (دائما) اضافة الى الاحساس (الباطل دائما) بتفوق المحمول الثقافي والاجتماعي على ذلك الذي يحمله الاخر لتصبح الهوية، كما أشرت مرات عديدة لذلك، مجرد سيف مسنون وجاهز للنزول على رقاب الاخرين.

حين تشتد الحاجة للتعاطي الحقيقي والعميق مع الاخر، وتبدأ الذات بالعثور على المشترك مع ذوات الاخرين وتذوق جمالياته، تغمد الهوية حينها سيوفها. تتراجع عن عصبيتها، عن حقها (المقدس) بالتفوق. وعن جاهزيتها لشن الهروب. وتصير اجمل. تصير امتدادا كونيا مزخرفا بالاغاني والرقصات وانواع اللغات. تصير مدخلا لثقافات الارض وليست حاجزا عنيفا في وجهها. تصير الهوية ارضا تستخرج من رحمها الهوية الاخرى.

ولكن.. الا يبدو الكلام اعلاه (النشيد اعلاه) مجرد استحضار غير واع لامنيات دفينة وغير ممكنة، في وقت ترفع فيه الهويات سيوفها وتنزل بها بلا رحمة (منذ فجر التاريخ وحتى اليوم والغد) على اي شيء لا يشبهها او يعكس صورتها. الا يبدو نشيد التسامح الاثير هذا ساذجا ومثيرا للضحك؟ الم تدمر الهوية، منذ تكونت العائلة والقبيلة ثم المجتمع والدولة، اسباب انفتاحها على الاخر، وقدرتها (المجمدة) على التنوع والتأثر والتأثير، وأثرت في الوقت ذاته نفسها وشروطها ودوافعها النرجسية، مغلقة بذلك الطريق الى الجانب الجميل/ الدفين فيها. ذلك الجانب الذي سمته الهوية الاخرى؟

تولد الهوية الاخرى اذن من رحم الهوية الاولى، من روحها العنيفة وغير المتسامحة، ثم تتمرد عليها، تنازلها، وتلغيها، لا بد ان تلغيها وان تحل محلها. لان اسبابها وشروطها واحلامها واهدافها شديدة الاختلاف عن تلك التي ولدت منها. ففي حين تتحول الهوية الى مشروع تفوق ذاتي، تؤسس الهوية الاخرى مشروعها الخاص. مختلف الاسباب والاهداف، فهي متسامحة، متنوعة، ومفتوحة على ثقافات الاخرين ومقرة بحقهم في الوجود. كما انها تعيش في رحلة بحث ابدية عن الجميل المستتر في هوية الآخر لتضمه اليها وتعطي الاخر ما لديها من جميل. لتصبح مفردات التأثر والتأثير التي استخدمتها مرارا حقيقية وممكنة. وليست ضربا من العبث او الجنون.

الهوية الاخرى هي الخروج العظيم الى رحاب الكون الى الجميل الخفي فيه، وهي التصاق الانا بالآخر الى الحدود العليا. ولكنها أولا واخيرا ابداع صاحبها، ابداع من يؤمن بها، ليس اكثر.

* كاتب من الاردن يقيم في فيينا